المحاضرة الرابعة :

عرف المجتمع الأوروبي في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي ، تغيرات جذرية خلخلت أبنيته الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و الثقافية ، فقد استطاعت الثورة البورجوازية على الاقطاع أن تنقل العالم من عصر إلى عصر ، فتولدت قيم و مفاهيم جديدة كان لها أثر كبير في قيام نهضة فكرية و علمية و اجتماعية و ثقافية ، إذ ظهرت فلسفات جديدة و أدب و فن جديدين و موضوعات جديدة و ثار الشعراء و الأدباء على الأدب الكلاسيكي و قواعده

كل هذا أدى إلى ظهور نظرية جديدة في الأدب هي نظرية " التعبير " التي جاءت انسجاما و نتاجا لتلك التغيرات الجذرية ، و قد ارتبطت بالبرجوازية و عبرت عن قيمها و طموحاتها في فترة صعودها .

1-التعريف بنظرية التعبير :

هي مذهب أدبي و فني يستهدف في المقام الأول التعبير عن المشاعر و العواطف و الانفعالات الوجدانية التي تثيرها الأشياء أو الأحداث الخارجية في نفس الأديب ، و قد ظهرت ردا على نظرية المحاكاة الأرسطية ، التي هي محاكاة للواقع أي اهتمت بالواقع اهتماما كبيرا، و همّشت الذات و أعلت من سلطة الواقع و المجتمع ، لتأتي نظرية التعبير و تُعلي من شأن الذات و تهتم بالمواضيع العاطفية و المشاعر و الوجدان

وتعد نظرية التعبير (التعبيرية) أكثر النظريات الأدبية تأثرا بالذاتية المفرطة فهي تقوم على فلسفة مثالية ذاتية تؤمن بالفردانية L'individualité و تعتبر الشعور و الوجدان و العاطفة جوهر الفرد فهو حر في التعبير عن ذاته بحرية مطلقة .

ووصفت نظرية التعبير بكونها تمردا على كل القواعد التي بُنيت عليها نظرية المحاكاة فالكتابة تعاقد حرّ بين الكاتب و القارئ ، و بذلك تكون قد تجاوزت الاعتماد على الواقع كما كان الأمر بالنسبة لنظرية المحاكاة

فقد اهتمت هذه النظرية بالفرد المبدع و أهملت الأسلوب و الشكل الفني و معها تراجعت أدبية العمل الأدبي من حيث لغته و أسلوبه البلاغي في الخطاب ، في حين قدّست الذات حتى أصبح الإنتاج الأدبي مجرد انعكاس للحالة النفسية للمبدع يتمّ إسقاطها على البيئة الخارجية / العام الموضوعي .

2 – الأسس الفلسفية و الفكرية لنظرية التعبير :

أن التغيرات الجذرية التي شهدتها أوربا في أواسط القرن الثامن عشر و التي تمحورت حول الفرد و الإيمان بالفردية ، لم تقتصر على مجال دون آخر ، فعلى الصعيد الاقتصادي رفعت البرجوازية شعارها " دعه يفعل ...دعه يمر " و على الصعيد الأدبي وجد شعار " دعه يعبر عن ذاته " ...فكانت الحرية و الديمقراطية أساس المجتمع البرجوازي .

و الفلسفة التي ظهرت في هذه الفترة هي الفلسفة " المثالية الذاتية " التي ترى أن الوجود الأولى للذات أو للوعي الإنساني ، أما العالم الموضوعي فهو من خلق هذه الذات لأن وجوده (وجود العالم الموضوعي) متوقف على مدرك له و دون هذا الإدراك يعد العالم الموضوعي غير موجود ، و نظرية التعبير تقوم على هذه الفلسفة ، الفلسفة المثالية الذاتية التي قدمت الشعور و الوجدان و العاطفة على العقل و التجربة .

و يعد الفيلسوفان الألمانيان إيمانويل كانط Emmanuel Kant(1724 –1800) وفريدريك هيجل Friedrich Hegel(1770 – 1831) من بين أهم المؤسسين لنظرية التعبير لأنهما كانا ينظران للفردانية ، كما كانا يتوجهان بأفكارهما إلى الأدباء و النقاد

فقد فصل كانط بين المعرفة الحسية و المعرفة العقلية ، و كان يرى أن الشعور طريقا إلى المعرفة الحقيقية

أما هيغل فقد كان يرى أن الفن إدراكا خاصا للحقيقة و الخيال هو أداة ذلك الادراك

و هكذا تبلورت نظرية التعبير فلسفيا ليذهب روادها إلى القول : إن الأدب تعبير عن الذات و العواطف و المشاعر فالقلب هو نور الحقيقة لا العقل . و أصبحت، بعد ذلك ، وظيفة الأدب عندهم متمثلة في إثارة انفعالات و أحاسيس المتلقين و عواطفهم .

2-أعلام نظرية التعبير :

نشأت نظرية التعبير في ظل الحركة الرومانسية في إنجلترا ، على يد شاعرين و ناقدين رومانسيين إنجليزيين بارزين هما وليام وردزورث (1850-1770) و صموئيل تيلوركولردج (1834 -1772) اللذين أصدرا ديوانا مشتركا هو " الأناشيد الغنائية " سنة 1798 ، و كان ذلك بمثابة إعلان عن ظهور الحركة الرومانسية في إنجلترا و أوروبا بصفة عامة ، فقد ترك هذا الثنائي أثرا بارزا في النقد الإنجليزي .

و عليه فإن الأدب عند وردزروث ذاتي و فردي بالدرجة الأولى و الانفعال الذاتي هو الذي ينتج الأدب أما عند صموئيل كولردج فالخيال هو الذي ينتج عنه الأدب

و هكذا نستخلص أن المعرفة الحقيقية هي المعرفة الباطنية الوجدانية و أن أجود الأدب هو الذي مصدره الوجدان .

فصموئيل كولردج يرى أن الخيال طاقة مهمة لإنتاج الأدب إنه " خلق صورة لم توجد و كان لها أن توجد بفضل الحواس وحدها أو العقل وحده ، و إنما هو صورة تأتي ساعة وتستحيل الحواس و الوجدان و العقل كلاّ واحدا في الفنان بل كلاّ واحدا في الطبيعة ، هذا الخيال وحده هو الذي يميز بين الشعراء و العباقرة " .

3 - نظرية التعبير و التلقي العربي :

ألقت نظرية التعبير بظلالها على النقد العربي في العقدين الثاني و الثالث من القرن العشرين ، مع ظهور مدارس التجديد الشعري ، التي تبنّت الاتجاه الرومنسي ، مثل مدرسة

الديوان و أبولو و المهجرو التي تصدّت للاتجاه الكلاسيكي / الاتباعي المتمثل في مدرسة الاحياء و البعث ، ونتج عن ذلك اهتمام كبير بالذات و الوجدان و إبراز قيمة الفرد التي أهملها التقليديون ، تجلى ذلك في تنظيرات هؤلاء الشعراء الأولى في مقدمات دواوينهم التي يكتبها الشاعر نفسه أو أحد النقاد ، مثل مقدمة العقاد للجزء الثاني من ديوان عبد الرحمان شكري و عنوانها " الشعر و مزاياه " في 1913 ، و مقدمته لديوان المازني " 1914 " و مقدمة عبد الرحمان شكري نفسه للجزء الثالث من ديوانه و عنوانها العاطفة في الشعر (1915)

و نستطيع القول إن نظرية التعبير أبرز مفهوم نظري تحكم في الإنتاج الأدبي و النقدي في الثقافة العربية في أغلب عقود القرن العشرين ، فالانفعال و الفردية و الصدق و الوحدة العضوية و التأكيد على قيمة الخيال ، و الإيمان بفردية الأديب و إحساسه و قدراته التعبيرية التي تميزه أصبحت مألوفة و من البدهيات في الأدب بدليل أن هناك مؤلفات عدة تتناول حياة الأديب و أدبه ، مثل كتب العقاد و منها (أبو نواس الحسن بن هانئ) و كتاب عيسى بلاطة عن السياب (بدر شاكر السياب حياته و شعره) و غيرها من المنتجات الأدبية و النقدية التي اهتمت بالفرد و جوانبه الذاتية .